دور الكراغلة في الجزائر أثناء الفترة العثمانية (1519–1830م)

أ.د. أرزقي شويتام
قسم التاريخ –جامعة الجزائر 2

The role of Kouloughlis in Algeria during the Ottoman period (1519-1830)

Pr. Arezki CHOUITEM
History department- University of Algiers2

Abstract
The Kouloughlis formed one of the communities of the Algerian society during the Ottoman period (1519-1830). They appeared as a distinct community by the end of the sixteenth century, due to a union between the Turks settled in Algeria and some Algerian families. This community has gradually been formed in most Algerian cities such as Tlemcen, Mascara, Blida, Oued Zeitoun, Medea, constantine.
In this study we try to determine, primarily, the degree of integration of the Kouloughlis in the Algerian society, and secondly, the type of relationship they had with the Turkish governors and other social categories. But before that we present and discuss data with regard to their number, their locations and their political and social rolein society.

Keywords:
Kouloughlis, Ottoman period, integration, politics, society.

Le rôle des Kouloughlis en Algérie durant la période Ottomane (1519-1830)

Pr. Arezki CHOUITEM
Département d'histoire- Université Alger 2

Résumé
Les Kouloughlis constituaient une communauté distincte de la société algérienne à l'époque Ottomane (1519-1830). Produit d'une union entre les turcs établis en Algérie et certaines familles algériennes, cette communauté qui remonte à la fin du XVIe. siècle, s'est établie dans la plupart des cités du pays, en l'occurrence, Tlemcen, Mascara, Blida, Oued Zeitoun, Médéa, Constantine etc.
Nous tenterons de déterminer dans cette étude, d'une part, le degré d'intégration des Kouloughlis dans la société algérienne, et d'autre part, le type de relations qu'ils entretenaient avec les gouvernants turcs et les autres catégories sociales. Mais avant cela nous essayerons de déterminer leur nombre, leurs lieux de résidence avant de mettre en évidence leur rôle politique et social dans la société.

Mots clés:
Kouloughlis, période ottomane, la société, intégration, politique.

ISSN : 2170-1431: ردمد * تاريخ القبول : مارس 2012 * تاريخ الإيداع : أفريل 2011

ملخص

يعتبر الكراغلة من الأطياف التي كان يتشكل منها المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية (1519-1830م). ويعود تاريخ ظهورهم كفئة اجتماعية متميزة إلى أواخر القرن السادس عشر، نتيجة ارتباط أتراك الجزائر ببعض العائلات الجزائرية. وهكذا أصبح الكراغلة مع مرور الوقت، يشكلون تجمعات سكانية في معظم الحواضر الجزائرية مثل تلمسان، معسكر، البليدة، وادي الزيتون، المدية، قسنطينة.

تسعى هذه الدراسة، إلى تحديد مدى اندماج الكراغلة في المجتمع الجزائري من جهة وتقييم نوعية علاقاتهم بالحكام الأتراك، وباقي الفئات الاجتماعية الأخرى من جهة أخرى. فضلا عن محاولة ضبط عددهم وأماكن إقامتهم، وإبراز دورهم في الحياة السياسية والاجتماعية عبر المراحل المختلفة.

الكلمات الدالة: الكراغلة، الفترة العثمانية، المجتمع، الاندماج، السياسة.

مقدمة

تشكل المجتمع الجزائري على غرار المجتمعات الأخرى، من عدة جماعات سكانية، فبالإضافة إلى السكان الأصليين، انضم إليهم في مطلع القرن السادس عشر، الأتراك العثمانيون، والأندلسيون، واليهود، والسودانيون، وتكونت فيما بعد جماعة الكراغلة أو المولدون، التي كانت نتيجة تزاوج أفراد الجيش التركي (الإنكشاري) بجزائريات. وكرغلي، كلمة عثمانية مركبة من كلمتين، هما قول وأغلو، وتعني عبد وابن، أي ابن العبد. فالإنكشاري كان يعرف بعبد السلطان العثماني وخادمه.

ويكون التركيز في هذه الدراسة على إحدى الجماعات، ألا وهي جماعة الكراغلة، لما كان لها من دور سياسي واجتماعي في المجتمع الجزائري خلال الحكم العثماني (1519-1830م). ونحاول أن نحدد درجة اندماج الجماعة المذكورة في المجتمع. وقبل معالجة النقطة التي أثرناها، سنقدم بعض الإحصاءات عن عدد أفرادها، ونحدد أماكن إقامتهم ثم نتتبع مراحل علاقاتهم بالسلطة الحاكمة، والجماعات السكانية الأخرى التي كانت تتفاعل معها.

عددهم وأماكن إقامتهم

تعد عملية تعداد سكان الجزائر عبر مختلف مراحل الحكم العثماني، من القضايا الشائكة والمعقدة، نظرا لعدم وفرة المعلومات والبيانات الإحصائية، ولهذا، فإن الإحصاءات التي وردت في مختلف المصادر، تعتبر جزئية، ولا تعكس بصدق العدد الإجمالي لسكان الجزائر. فهناك بعض الإحصاءات التي اقتربت من الحقيقة، وذلك عندما يتعلق الأمر بعدد السكان في المدن الجزائرية

الرئيسية، مثل مدينة الجزائر، ووهران، وعنابة، وقسنطينة، وتلمسان، والمدية وغيرها. نظرا لاستقرار السكان، وتسجيل معظمهم في سجلات الضرائب. أما إذا كان الأمر متعلقا بمعرفة عدد السكان على مستوى كل القطر الجزائري، فان ذلك يغلب عليه التخمين، والمبالغة، وعدم الدقة. وقد يعود ذلك في نظرنا إلى عدة أسباب منطقية وموضوعية، منها: أن المهتمين بالإحصاءات قد اكتفوا بإحصاء السكان المقيمين بالمدن، دون الأخذ بعين الاعتبار سكان المناطق الريفية، والصحراوية، لعدم وجود بيانات يعتمدون عليها، ولاسيما القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب، ولهذا لا يمكن قيدها في سجلات البايلك. كما أنه أضحى من الصعب على الأجنبي التوغل إلى دواخل البلاد. فهناك بعض المناطق الجبلية والصحراوية، لم تتمكن الإدارة من تفقدها، وجمع الضرائب من أهلها. والواقع إن عملية تعداد السكان والثروة والممتلكات، لم تكن محبذة عند المسلمين عامة، فكانوا يتشاءمون منها.

وقد أبدى القنصل الفرنسي في الجزائر فاليير J.A. Valliere، في أواخر القرن 12هـ/18م، نفس الملاحظة، إذ قال: "إن عدد سكان الجزائر قليل إذا قارناه بمساحتها الواسعة، إنه من الممكن معرفة أولئك المقيمين في المدن، ولكن كيف يمكن تعداد أولئك القاطنين في الأرياف والجبال والرحل".[1]

إن المؤكد، هو أن عدد سكان الجزائر قد عرف ارتفاعا ملحوظا خلال القرنين 16و17م، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة عوامل، منها:

ـ توافد عدد كبير من المسلمين واليهود والأندلسيين والعثمانيين القادمين من مختلف الولايات العثمانية[2].

ـ مصاهرة الأهالي للوافدين، الذي أدى إلى ظهور عنصر جديد، المتمثل في الكراغلة أو المولدين.

ـ تزايد نشاطات البحرية الجزائرية ساهم في جلب عدد كبير من الأسرى المسيحيين، الذين قدر عددهم في القرن 16م بحوالي خمسة وعشرين ألف أسير[3]، علما أن بعضهم اعتنقوا الإسلام، وشكلوا أسرا في الجزائر.

ـ توافد العناصر السودانية، نتيجة الاتصالات التجارية بين الجزائر والسودان الغربي.

---

1 – Chaillou, L. (1979). L'Algérie en 1781, p.19.

2 – Gramaye, J.B. (1998). Journal de J.B Gramaye évêque d'Afrique, p.84.

3 ـ De Haëdo, F. (1870). Topographie et Histoire d'Alger, p.490.

ـ قلة انتشار الأمراض والأوبئة، وانتعاش الاقتصاد، مما سمح بتحسين الأحوال الصحية والاجتماعية للسكان.

أما فيما يخص عدد الكراغلة وأماكن انتشارهم، موضوع بحثنا، فإنه كان في تزايد مستمر. فقد قدر عددهم في عام 1621م في مدينة الجزائر بخمسة آلاف نفر، في الوقت الذي كان عدد الأتراك العثمانيين لم يتجاوز عشرة آلاف. وإذا كانت الإحصاءات المتعلقة بالكراغلة والسكان عامة قليلة ونادرة في القرنين 16 و17م، فإن المصادر قد ركزت بصفة خاصة على القرنين 18 و19م، إذ وردت فيها مجموعة من الإحصاءات. وبالرغم من وفرتها، فإنها اتسمت بالتضارب والتناقض. فقد ذكر فالبير أن عدد الكراغلة في أواخر القرن 18م، كان يتراوح ما بين أربعين وستين ألف نسمة في كل القطر الجزائري[4]. بينما ورد في مصدر أخر أن العدد الإجمالي للكراغلة والأتراك قدر بأربعين ألف في مطلع القرن 19م[5]. وقد اعترف صاحب هذا الإحصاء بصعوبة الحصول على الإحصاءات الدقيقة، إذ قال: "إنه لمن الصعب أخذ فكرة دقيقة عن عدد السكان في مختلف الولايات العثمانية لأن المسلمين يعتبرون عملية الإحصاء إثما كبيرا، شأنهم في ذلك شأن اليهود"[6].

والواقع أن عدد سكان الجزائر بما فيهم الكراغلة، بدأ يتناقص بشكل يلفت الانتباه منذ أواخر القرن 18م، نتيجة اشتداد وطأة الطاعون، وانتشار المجاعات. فلم يعد سكان مدينة الجزائر يتجاوز خمسين ألف نسمة منهم ستة آلاف كرغلي، بعدما كان في القرن 17م يناهز التسعين ألف نسمة[7]. وقد قدر مصدر أخر عدد الكراغلة في كل القطر الجزائري في عام 1830م، ب 8688 نسمة، يتوزعون على النحو التالي: مدينة الجزائر (2076)، بايلك وهران (1402)، التيطري (1415)، قسنطينة (1130)، وادي الزيتون (الأخضرية) (2665) [8]. وقد ورد في إحدى الدراسات التي اعتمد صاحبها على التقارير التي أعدها الضباط الفرنسيون، لأغراض استعمارية، خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر، أن الكراغلة في بايلك الغرب، كانوا يتوزعون على المدن الآتية: خمسمائة جندي في تلمسان، وخمسمائة وأربعة في مستغانم، وخمسمائة في

4 - Chaillou, op. cit., p.19.

5 -Juchereau, D. S. D. (1831). Considérations Statistiques, Historique, Militaires sur la régence d'Alger, p.40.

6 -Ibid. p.39.

7 -Venture De Paradi, J.M. (1983). Tunis et Alger au XVIIIé. Siècle, p.109.

8 -Baude, L. (1841). L'Algérie, p.80.

مازونة. وكانت قلعة بني راشد تحتضن ثمانين عائلة[9]. وكانت مدينة المدية في بايلك التيطري، تضم عددا منهم. أما في وسط البلاد، فإن عددهم كان ضئيلا في مدينة الجزائر، إلا أنهم كانوا يشكلون القسم الأكبر من سكان مدينتي القليعة والبليدة. وكانت قبيلة وادي الزيتون، باستطاعتها تسليح عدد معتبر من المحاربين في فترة الحرب. وهناك عدد من الكراغلة في بايلك قسنطينة، كانوا يقيمون في الحاميات العسكرية، مثل تبسة، وزمورة، وعنابة، وتعد حامية ميلة من أكبر الحاميات في البايلك [10].

ظروف ظهور جماعة الكراغلة

وإذا بحثنا الآن عن ظهور الكراغلة على مسرح الأحداث، عبر مراحل الحكم العثماني، وعلاقاتهم بالسلطة، وكذلك بمختلف الفئات الاجتماعية، وحاولنا فهم وضعهم الاجتماعي، أنه عندما قرر العثمانيون الاستقرار في الجزائر، أدركوا أن بقاءهم في البلاد لا يتم إلا بتوطيد علاقاتهم بالأهالي، والتقرب منهم عن طريق المصاهرة مع الأسر الجزائرية ذات المال والجاه على الخصوص.

وقد وجد العثمانيون ترحيبا لدى سكان المدن الأثرياء منذ البداية، لاسيما الأندلسيين، الذين كانوا بحاجة إلى أناس أقوياء، يساعدونهم على حماية ثروتهم وأعراضهم، وتعزيز مكانتهم، نظرا لتلك الظروف الحرجة، والتحولات الخطيرة التي كانت تمر بها البلاد آنذاك [11]. وامتدت علاقات العثمانيين فيما بعد لتشمل الأسر القوية القاطنة في دواخل البلاد، مثل أسرة آل القاضي بالزواوة، وآل مقران بمجانة، وابن قانة بالزيبان[12]، وابن شهرة بالتيطري [13]. وقد استفاد العثمانيون من تلك العلاقات، إذ مكنتهم من بسط نفوذهم على المناطق الداخلية. وكان لعاملي الدين والخطر الخارجي، دور في توطيد العلاقات بين الطرفين، وهذا ما يؤدي إلى الاعتقاد أن العامل الرئيسي الذي وحد بين العثمانيين وبعض الفئات من المجتمع الجزائري، هو المصلحة المشتركة. فإذا كان الطرف الأول يبحث عن سند داخلي، يمكنه من تدعيم وجوده في الجزائر، فإن الطرف الثاني، كان يبحث عن القوة التي تتكفل

9 -Emerit, M.(1966). Les Tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX, p.46.

10 -Ibid. p.47.

11- Feraud, L.C. (1880). Notes Historiques sur la province de Constantine, les Beni Djellab, Sultans de Touggourt, pp.105-106.

12-Desjobert, A. (1837). La question d'Alger, politique, colonisation, commerce, pp.21-22.

13-Guin, M. (1873). Notes Historiques sur les Adaoura, p.109.

بحمايته من الأخطار الخارجية، والتقلبات الداخلية، وتساعده في نفس الوقت على تعزيز مركزه، وتقوية نفوذه في المجتمع الجزائري. وقد نتج عن تلك المصاهرة عنصر جديد، عرف بالكراغلة أو المولدين. ولكن رغم أن هذا العنصر من صلب العثمانيين، فإن نسبه ارتبط عبر مختلف مراحل الحكم العثماني بنسب أخواله [14].

تفاعل الكراغلة السياسي والاجتماعي

لقد أصبح الكراغلة مع مرور الوقت يقومون بدور الوساطة بين الحكام والمحكومين، ولعبوا دورا بارزا في تاريخ البلاد خلال الفترة العثمانية. وقد عاش الكراغلة في بداية عهدهم كبقية العناصر العثمانية، فكانوا يتمتعون بنفس الحقوق والامتيازات، التي كان يتمتع بها آباؤهم. ويبدو أن سبب اندماج الكراغلة بالعثمانيين، كان يعود إلى قوة شخصية الحكام الأوائل، الذين عرفوا كيف يوحدون العناصر المختلفة تحت حكمهم. وساعدت سياستهم العادلة على خلق نوع من الانسجام والترابط بين مختلف العناصر، طوال مدة حكم البايلربايات (1587-1519م) [15]. كما أن عدد الكراغلة والعثمانيين كان ضئيلا في تلك الفترة. وكان هم الجميع آنذاك، هو تكريس وجودهم في الجزائر، والدفاع عنها ضد الاعتداءات الخارجية، وإخماد الاضطرابات والفتن الداخلية، التي كانت تهدد مصيرهم، والسعي إلى توحيد البلاد تحت راية واحدة. ولهذه الأسباب أيضا، عرفت البلاد استقرارا نسبيا، إلا أن الو ضع قد تغير في الفترات اللاحقة. فابتداء من الربع الأخير من القرن 16م، أخذ الأتراك العثمانيون يتخوفون من تزايد عدد الكراغلة، الذين باتوا يشكلون قوة لا يستهان بها[16].

ففي عام 1596م، تعاون الكراغلة مع خضر باشا، حاكم الجزائر لإخماد عصيان الإنكشارية [17]. ومنذ ذلك التاريخ أخذ الإنكشاريون يفكرون جديا في التخلص من الكراغلة نهائيا، وإقصائهم من المناصب الحساسة. وكانوا يرون بقاءهم في صفوف الجيش، ومناصب الدولة، خطرا على حكمهم في الجزائر [18].

وهناك من أرجع أسباب فصل الكراغلة من المناصب العليا والحساسة، وحرمانهم من التمتع بنفس الامتيازات التي كان يستفيد منها الأتراك العثمانيون،

14-Rozet M. et Carette, (1980). Algérie états tripolitaines, p.13.

15 -Boyer, P. (1970). Le Problème Kouloughli dans la régence d'Alger, p.80.

16-Ibid. p.81.

17- قيل إن خضر باشا عين على الجزائر للمرة الثانية في سنة 1594م، ولم يكن محبوبا لدى الإنكشارية، أنظر، عزيز سامح ألتر، (1989)، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص. 308.

18-Boyer, op.cit., p.82.

إلى إمكانية ارتباط الجنود الكراغلة عن طريق المصاهرة بالعائلات المحلية، مما يزيد من عددهم، ويشكلون خطرا على الدولة وعلى الوجود العثماني في الجزائر عامة [19]. ولنفس الأسباب لم يكن يسمح للجزائريين بالانضمام إلى صفوف الإنكشارية [20]، إلا أن هناك بعض الفرق الخاصة المشكلة من العناصر المحلية، المجندة من قبائل الزواوة الجبلية. وكان سبب ذلك الحرمان أيضا، هو أن الكراغلة قد مالوا إلى مساندة جماعة الرياس، التي دخلت هي الأخرى في تنافس ضد الإنكشارية. وكان الكراغلة يعتقدون أن الرياس يمنحونهم بعض المناصب في حالة انتصارهم على الإنكشارية [21].

والظاهر أن توقعات الأتراك العثمانيين كانت صائبة، إذ ما لبث أن حدث ما كانوا يخشونه، حيث قام الكراغلة في عام 1629م بتنظيم مؤامرة ضدهم، قصد طردهم من البلاد [22]. إلا أن رد فعل الأتراك العثمانيين كان سريعا وحازما، فتمكنوا من السيطرة على الأوضاع، وقمع حركتهم[23].

وبعد هذه المحاولة الانقلابية الفاشلة، طرد الأتراك العثمانيون الكراغلة من مدينة الجزائر، وشتتوا شملهم. فمنهم من استقر بوادي الزيتون، وأسسوا القبيلة المعروفة بقبيلة الزواتنة الواقعة بنواحي الأخضرية، ومنهم من استقر بضواحي زمورة، التابعة لبايلك قسنطينة. وهناك من التحق بمنطقة الزواوة الجبلية، التي كان أهلها في حرب ضد السلطة العثمانية [24]. وبقي الكراغلة في المناطق المذكورة، ينتظرون الفرصة للإغارة على العثمانيين مرة أخرى.

وقد أتيحتلهم أول فرصة في عام 1633م، عندما ثار الجيش ضد حسن باشا، لعجزه عن دفع جرايات الجند [25]. وقد استغل الكراغلة الوضع، ليتسللوا خفية إلى مدينة الجزائر، وحيث، جرت معركة دامية بين الطرفين، مما تسبب في انفجار مخزن البارود، الذي خلف خسائر مادية وبشرية معتبرة، رجحت إثر ذلك كفة الإنكشارية. ولم يكن بوسع الكراغلة إلا الانسحاب إلى مقر إقامتهم في الأرياف والمدن الداخلية [26]. ويرجع سبب فشل الكراغلة في محاولتهم

19–Shaw, T. (1980). Voyage dans la régence d'Alger, p.185.

20–Gramaye, op.cit., p.118.

21–Garrot, H. (1910). Histoire générale de l'Algérie, p.478.

22 – حمدان بن عثمان خوجه (1980). المرآة، ص. 154.

23–Boyer, op. cit., p.82.

24–Ibid., p.83.

25 –Ibid.

26–Garrot, op;cit., p.478

الانقلابية، إلى عدم اختيارهم الوقت المناسب، كما أنهم لم يتلقوا الدعم المنتظر من الرياس [27].

وقد قام الجيش إثر هذه الواقعة، بطرد الكراغلة من جميع مناصب الدولة، كما لم يعد يسمح لهم بالاستمرار في سلك الجندية، فكانوا يطردون بمجرد وصولهم إلى رتبة الضابط[28]. إلا أنهم ظلوا يتقاضون مرتباتهم من خزينة الدولة، خوفا من إثارة غضبهم[29].

ولم يكتف الحكام العثمانيون بهذه الإجراءات الصارمة، التي اتخذوها ضد الكراغلة، بل ضربوا عليهم حراسة مشددة، فكانوا يتتبعون نشاطهم عن كثب، «فعندما يكتشف الأتراك أنهم يضمرون لهم نوايا سيئة، بل عندما يخامرهم أدنى شك، فإنهم ينفون قادتهم، ويفرقون اجتماعهم" [30].

وهكذا بقي الكراغلة يعيشون في عزلة تامة، مجردين من حقوقهم وامتيازاتهم. وخلا الجو للطبقة الحاكمة، التي أصبحت تسير البلاد حسب أهوائها. وقد علق القنصل الأمريكي في الجزائر شالر (1816-1824) Shaler، عن وضع الكراغلة، قائلا: «الكراغلة لا يتمتعون بحقوق أكثر مما كان يتمتع به الجزائريون، فيما يتعلق بالمناصب في الدولة. لكن يمكنهم الرقي في البحرية، كما يمكنهم الوصول إلى مناصب القائد والباي... كما يتمتعون بامتيازات لا قيمة لها. ولكنه لا تربطهم أية علاقة بالأتراك. وقد رفضهم العنصر التركي رفضا قاطعا، واعتبرهم من جنس السكان الجزائريين" [31].

ومهما كان وضع الكراغلة، فإنهم لا يتعرضون للمضايقات التي كانت تتعرض لها بعض الفئات الاجتماعية الأخرى. وقد تمكنوا بعد فترة قصيرة من إقصائهم، من الظهور على مسرح الأحداث، وذلك حينما أصدر الداي شعبان (1689-1695م)، قرارا، نص على ضرورة معاملة الكراغلة كبقية العناصر العثمانية الأخرى [32]. وكان الداي يهدف من وراء قراره، إلى رفع عدد الجنود، لاسيما إذا علمنا أنه كان بحاجة إلى جيش قوي لمواجهة التطورات الخطيرة التي طرأت على الساحة الخارجية، إذ تعرضت البلاد في عهده لحملة عشكرية شنها مولاي

27- ألتر، المرجع السابق، ص.357.

28-Deparadis, op; cit;, p.180.

29 - حمدان خوجه، المصدر السابق، ص. 155.

30 - نفسه، ص. 154.

31 - وليام شالر، (1982)، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، ص.184.

32 -Rozet, op. cit., p.13.

إسماعيل، سلطان المغرب الأقصى على الحدود الغربية [33].

والواقع أن القرار الذي أصدره الداي شعبان بشأن الكراغلة، لم يغير كثيرا من وضعهم، إذ بمجرد اغتياله، واصل الجيش المسيطر على مقاليد الحكم، سياسة الإقصاء والمعاداة للكراغلة. إلا أن ذلك لم يمنع الكراغلة من تشكيل تجمعات سكانية في البايالیك الثلاثة، وكان لهم دور بارز في مدينة تلمسان، ومعسكر، ومستغانم، والمدية، وعنابة. وتوصلوا بهذه الكيفية، إلى الحصول على امتيازات هامة، مما مكنهم من تعويض ما فقدوه في مدينة الجزائر [34]. وكان البايات يعينونهم في الوظائف الإدارية والعسكرية على مستوى بايالكهم، مما ساعد بعضهم على الوصول إلى مرتبة الباي نفسها [35]. ويبدو أن الاستعانة بالكراغلة لتدعيم الجهازين الإداري والعسكري في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، يعود إلى قلة الانكشاريين الوافدين من الولايات العثمانية المشرقية. كما أن هذه السياسة كانت تندرج في إطار الخطة الإستراتيجية التي وضعها الحكام لتسيير البلاد، والتحم في الأهالي. فقاموا بتعيين مجموعة كبيرة من الكراغلة في سلك البايات. وكان هدفهم، كسب ود وتأييد الأسر المحلية القوية، التي كان ينتمي إليها البايات الجدد.

وبعد أن استرجع الكراغلة نفوذهم ومكانتهم، بعد أن سمح لهم فرحات، باي قسنطينة في عام 1648م، بالدخول إلى المدينة، شريطة دفع التأمينات اللازمة [36]، بدأوا يفكرون من جديد في تنظيم مؤامرة لقلب النظام. وكانت اخطر محاولة لهم، تلك التي قام بها كراغلة تلمسان في عام 1748م، ضد الحامية العثمانية[37]. وبعد هذه المحاولة الفاشلة، قرر الحكام أن لا يعينون الكراغلة في منصب البايات. وقد استمر هذا الإجراء طوال الفترة الممتدة من 1748 إلى 1780م [38]. إلا أن إبعاد الكراغلة من منصب البايليكية كان مؤقتا، إذ تم إدماجهم مرة أخرى في ذلك المنصب. ويبدو أن سبب تراجع الحكام عن قرارهم، يعود إلى جملة من العوامل، منها: ـ انخفاض عدد الجند في أواخر القرن 18م، نتيجة انتشار وباء الطاعون.

---

33 -Ph. Decosse Brissac, (1931), Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête d'Alger, 1830-1837, p.3.

34-Boyer, op. cit., p.87.

35-Deparadi, op. cit., p.180.

36 - ألتر، المرجع السابق، ص.374.

37-Devoulx, A. (1859). Ahad Aman ou Règlement Politique et Militaire, p.211.

38-Boyer, op; cit., p.89.

- تراجع عدد المجندين من المشرق.
- رغبة الحكام في خلق التوازن في صفوف الجيش، ومواجهة خطر الإنكشارية، الذي أضحى يهدد أمنهم واستقرار البلاد.
- تدعيم قدرات الجيش، والرفع من عدد عناصره لمواجهة الانتفاضات الداخلية والاعتداءات الخارجية.

وهكذا احتفظ الكراغلة بمناصبهم حتى عام 1830م [39]. وقد ساعدت الظروف السائدة آنذاك، على خلق نوع من التقارب والتعاون بين الكراغلة والدايات، قصد مواجهة الموقف الصعب الذي كانت تمر به البلاد. ولهذا نجد الداي علي يستعين بالكراغلة في عام 1808م، لإخماد عصيان الإنكشارية [40]. إلا أن أكبر مساهمة لهم، كانت في عهد الداي علي خوجه في عام 1817م، الذي استعان بهم للقضاء على فرقة الإنكشارية، فوجد لديهم تجاوبا كبيرا. وقد تمكن الكراغلة بمساعدة فرقة الزواوة، من القضاء على عدد كبير من العناصر الإنكشارية، وتم نفي مجموعة كبيرة منهم [41]. ويعتبر ذلك التجاوب، وتلك المساهمة، نتيجة منطقية لذلك الصراع الذي بدأ بين الكراغلة منذ عهد البايلربايات.

والجدير بالملاحظة، أن جهود الكراغلة لتحقيق طموحاتهم، وعلاقاتهم بالإنكشارية، عرفت تطورا مهما منذ أواخر القرن 18م. فبعد أن فكروا في انتزاع السلطة من العثمانيين في الجزائر، في المرحلة الأولى، أصبحوا فيما بعد يفكرون في كيفية الحفاظ على امتيازاتهم، أو مساندة أحد أطراف السلطة ضد طرف آخر [42]. ويمكن إرجاع سبب فشلهم في تحقيق أهدافهم السياسية، إلى عدم محاولتهم الاستعانة بالقوى المحلية، أثناء تنفيذ مشاريعهم. ولعل هذا السبب وغيره من الأسباب، هو الذي جعلهم غير قادرين على تحقيق ما حققه الكراغلة في تونس، حيث تمكنت الأسرة الحسينية بقيادة حسين بن علي الكرغلي من الوصول إلى الحكم في تونس في عام 1705م [43]. ولهذا قيل إن كراغلة الجزائر أصبحوا يشكلون طبقة بورجوازية في المدن[44]. وأعتقد أن

39-Ibid. p.90.

40 - أحمد الشريف الزهار، (1974). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ص.103.

41 - نفسه، ص.176.

42-Boyer, op; cit., p.90.

43 - أحمد ابن أبي الضياف، (1977)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس في عهد الأمان، ص.107.
أنظر أيضا:
-Cherif, M. E.H.(1984). Pouvoir et société dans la Tunisie de H'ssyn Bin Ali, p.122.

44-Raymond, E. (1985). Grandes villes arabes à l'époque ottomane, p.78.

هذا الرأي لا ينطبق على كل الكراغلة، حيث هناك مجموعة كبيرة منهم، كانوا مجرد جنود يرابطون في الحاميات العسكرية في المدن والقرى الجزائرية. وكان الحكام يشكلون منهم فرق المشاة أثناء الحروب. أما في أوقات السلم، فكان الكراغلة يضطرون لكسب عيشهم، إلى ممارسة مختلف المهن وزراعة البساتين الواقعة في ضواحي المدن [45].

ومهما كان وضع الكراغلة السياسي والاجتماعي، فإنهم كانوا يتكلمون لغة الأتراك العثمانيين. فكانت لهم مساجد خاصة بهم، ولا يختلطون بالعنصر المحلي. وكانت طموحاتهم تتلخص في الاعتراف بهم كعناصر تركية، وتقلد المناصب الإدارية والعسكرية العليا في الدولة 46. وقد حقق الكراغلة بعض النتائج على الصعيد الاجتماعي، «إذ أصبحوا يحتلون المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، وشكلوا طبقة وسطى ميسورة الحال، تمارس التجارة وتشتغل بالمهن وتستثمر الملكيات الزراعية بالفحوص وفي بعض الأحيان تقوم بوظائف إدارية متوسطة" [47]. ففي مدينة تلمسان مثلا، كان الكراغلة يشكلون الأغلبية، ويؤلفون شبه حكومة خاصة بهم، ويتقاسمون المدينة مع جماعة الحضر. ولهم ديون خاص بهم، وصلاحيات واسعة معترف بها. فكان يسمح لهم بجمع الضرائب من المناطق الجبلية، مثل بني سنوس وبني رافاس وطرارة [48]. وأعتقد أن السبب الذي جعل السلطة المركزية تمنح نسبة من الحرية لكراغلة تلمسان، يعود إلى بعد المسافة عن مركز السلطة، وإلى طبيعة بايلك الغرب، الذي كثرت فيه القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب، علاوة على الوجود الإسباني في مدينة وهران، وإلى قرب تلمسان من المغرب الأقصى.

إن الصراع الذي نشب بين الكراغلة والأتراك العثمانيين في فترة من فترات الحكم العثماني، كان سببه ذلك الحاجز الذي وضعه بعض الحكام بين الفئتين تحت ضغط الإنكشارية. وقد أدى ذلك إلى حرمان البلاد من الاستفادة من إمكانيات الكراغلة البشرية والمادية. ولهذا يمكن أن نعتبر الصراع عاملا من العوامل التي ساعدت إلى حد كبير على تدهور الحياة السياسية في الجزائر أحيانا. وهذا ما جعل حمدان بن عثمان خوجه يقول: «وضع الأتراك ثقتهم في اليهود لأنهم لا يخشون منهم الاستيلاء على الحكم" [49].

وكان الحكام يعتقدون أن الاستعانة باليهود أقل خطورة من الاستعانة

45–Emerit, op; cit., p.46.

46 –Ibid.

47 – ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، (1984). الجزائر في التاريخ، ص.95.

48 – نفسه، ص.95.

49 – حمدان خوجه، المصدر السابق، ص.157.

بالكراغلة، لأن نفوذهم بين السكان المحليين كان ضعيفا، ولم يكن في مقدرتهم التحالف معهم ضدهم. وما يؤكد القطيعة التي حدثت بين الأهلي والكراغلة، فإن محمد، باي وهران، ذهب إلى تلمسان في عام 1805م، لوضع حد للفتنة الواقعة بين الطرفين [50]. وقد وجد الكراغلة أنفسهم عندما سقطت الجزائر في أيدي الفرنسيين عام 1830م معزولين عن الأهالي والعثمانيين. فأصبحوا عرضة للهجمات التي كانت تقوم بها ضدهم بعض القبائل من حين لآخر. فنظرة الأهالي إلى الكراغلة لم تكن تختلف عن نظرتهم إلى الأتراك العثمانيين، فلم يحاولوا التقرب من الأهالي طوال فترة وجودهم في الجزائر بالرغم من الروابط الدموية التي كانت تربطهم بهم. ففضلوا ربط مصيرهم بمصير الأتراك العثمانيين. وهذا ما جعلهم يضطرون إلى الانضمام إلى الجيش الفرنسي، خوفا من الانتقام. فقد وقف الكراغلة في وجه الأمير عبد القادر لما حاول فتح المشوار بمدينة تلمسان في مطلع عام 1836م[51]. ونفس الموقف أبداه كراغلة وادي الزيتون في عام 1838م، إذ رفضوا الانضواء تحت سلطة الأمير عبد القادر، ودفع الضرائب المقررة عليهم. وبعد أن انتصر عليهم الأمير عبد القادر، اضطر ألف وستمائة منهم إلى الانسحاب إلى متيجة، حيث طلبوا حق اللجوء من القائد الفرنسي فالي، الذي زودهم بالمؤن والأراضي الزراعية، كما جند سبعمائة منهم ليشكل فرقة عسكرية إضافية دعم بها الجيش الفرنسي[52].

الخاتمة

وعلى ضوء ما تقدم، يتضح أن الكراغلة قد شكلوا فئة اجتماعية متماسكة، حاولوا في العهود الأولى من الحكم العثماني الانفراد بالسلطة، وفرض وجودهم، إلا أن تزايد عدد الأتراك المجندين من المشرق، والطلب المتزايد على الامتيازات المادية، تم إقصاء العناصر الكرغلية من المناصب العليا ومقاليد السلطة. إلا أن موقف العثمانيين حيال الكراغلة قد تغير منذ أواخر القرن الثامن عشر، إذ سمح لهم الحكام بالاندماج في صفوف الجيش، وبتولي بعض المناصب العليا في الإدارة والقيادة. لكن ذلك لم يكن حبا فيهم، وإنما ذلك كان نتيجة قلة الجنود الوافدين من المشرق، والنفوذ المتزايد للجيش في المجال السياسي، فاضطر الحكام إلى الاستعانة بالكراغلة لخلق التوازن بين مختلف القوى العسكرية، وتعزيز قدراتهم العسكرية لمواجهة التحرشات الخارجية، وقمع الانتفاضات الداخلية.

---

50 - سعيدوني، المرجع السابق، ص.97.

51-Montagnon, P. (1986). La Conquête de l'Algérie 1830-1871, p.162.

52-Emerit, op, cit., p.48.

وبالرغم من فشل الكراغلة في تحقيق أهدافهم، فإن دورهم في المجتمع كان يتميز بالديناميكية، الذي يمكن اعتباره إيجابيا، إذ كان يعبر عن وجود معارضة داخلية، وهذا ما لا نجده عند جماعة البلدية والأندلسيين، التي التزمت دور المتفرج من الأحداث طوال العهد العثماني، ولم تحاول فرض وجودها، بل كانت تساند الحكم، حفاظا على امتيازاتها.

أن الجماعة المتكون من الأتراك العثمانيين والأعلاج (المهتدين) والكراغلة، كانت لكل هذه العناصر نفس الطموحات والأهداف. وكان الجميع يسعى على الاستفادة من الامتيازات المادية، إلا أن ذلك لا يتأتى إلا بالاستيلاء مقاليد الحكم، وذلك أيضا لا يتحقق إلا بتكاتف الجهود والتحالف في عصبة واحدة. وقد أدرك الجميع تلك الحقيقة مع مرور الوقت، وهذا ما جعلهم يتخلون عن الصراعات، ويتجاوزون خلافاتهم، التي كانت تهدد وجودهم في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر. وفي كل الحالات، كان الكاغلة أقل حظا من الأتراك والأعلاج.

وإن توصل الكراغلة إلى الاندماج النسبي مع الأتراك العثمانيين، فإن علاقاتهم بسكان المدن كانت مقصورة على التعامل التجاري فقط، فلم تصل إلى درجة الانسجام والذوبان. فالكراغلة شكلوا جماعة منغلقة على ذاتها، وتأثرت إلى حد بعيد بعادات وتقاليد وسلوك ولغة العثمانيين، وهنا تكمن صعوبة الفرز بين التركي والكرغلي.

أما عن علاقات الكراغلة بسكان الأرياف، فإن رد فعل الريفيين من الكراغلة أثناء احتلال الجزائر، يعبر بوضوح عن الشرخ والاحتقان الموجود بين الجماعتين، ويبدو أن ذلك كان نابعا من تصرفات الكراغلة حيال الأهالي، لما كانوا يتولون بعض المناصب الإدارية والعسكرية خلال فترة الحكم العثماني. وهذا ما دفع الكراغلة إلى الانضمام إلى صفوف الجيش الفرنسي، باحثين عن الحماية.

أن سبب فشل الكراغلة في محاولاتهم الانقلابية ضد الأتراك العثمانيين، يمكن إرجاعه إلى عدم استعانتهم بالقبائل الريفية، لاسيما تلك التي كانت في حرب دائمة ضد السلطة. كما أنهم ضيعوا فرصة عدم الانضمام إلى الثورات الريفية التي اندلعت في مطلع القرن التاسع عشر ضد سلطة البايالیك. فالكراغلة اتخذوا الرياس حلفاء لهم، لكنهم خذلوهم، فالرياس كانت تربطهم بالأتراك العثمانيين مصلحة مشتركة، ألا وهو الحفاظ على الجزائر، ولتحقيق ذلك الهدف، لابد من ضمان أمرين أساسيين، الأول، هو أن الأتراك العثمانيين كان مطلوب منهم إخماد الحركات الانفصالية، واستتباب الأمن الداخلي. أما الرياس، فمهمتهم الدفاع عن البلاد من التحرشات والأطماع الخارجية، وتزويد

خزينة الدولة بالغنائم البحرية، لضمان رواتب الجيش. وهذا ما يفسر سبب عدم تحالف الرياس مع الكراغلة.

المراجع

1. ابن أبي الضياف أحمد (1977). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس في عهد الأمان. الطبعة 2، الجزء 2، الدار التونسية للنشر والديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر.
2. حمدان بن عثمان خوجه (1980). المرآة، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
3. الزهار أحمد الشريف (1974). مذكرات أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، تقديم وتعليق، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
4. سعيدوني ناصر الدين، بوعبدلي المهدي (1984). الجزائر في التاريخ. المؤسسة الوطنية للكتاب، لجزائر.
5. شالر وليام (1982). مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824. ترجمة إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت. الجزائر.
6. Baud, L. (1841). L'Algérie, Arthur Bertrand, 2é. éd. Paris.
7. Boyer, P. (1970). Le Problème Kouloughli dans la régence d'Alger. in R.O.M.M, N° spécial, Aix.
8. Chaillou, L. (1979). L'Algérie 1781, Paris.
9. Cherif, M. H. (1984). Pouvoir et société dans la Tunisie de H'ssyn Bin Ali, Pub. Université de Tunis.
10. Decosse Brissac, PH. (1931). Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête d'Alger 1830-1837, Larose éd. Paris.
11. Desjobert, A. (1837). La question d'Alger, politique, colonisation, commerce, P. Dufart, Paris.
12. Devoulx, A. (1859). Ahad Aman ou Règlement politique et militaire. texte turc, trad. en arabe par Mohammed Ben Mustapha, in revue africaine n° 16; Alger.
13. Emerit, M. (1966). Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX é. siècle., in annales économiques, sociétés et civilisations, n° 1.

14. Feraud, L. (1880).Notes Historiques sur la province de Constantine, les Beni Djellab, Sultans de Touggourt, in R.A. n° 24, Alger.

15. Garrot, H. (1910). Histoire générale de l'Algérie, Imp. Cresenzo Voutes, Alger.

16. Guin, M. (1873). Notes historiques sur les Adaoura, in R.A. n° 5, Alger.

17. Gramaye, J.B. (1998). Journal de J. B. Gramaye évêque d'Afrique, trd. du latin A.E.H. Benmansour, Cerf, Paris.

18. Haëdo, F. DE, (1870). Topographie et histoire d'Alger. trad. de l'Espagnol, par A. Berbrugger et Monnereau, R.A. n°14, Alger.

19. Juchereau, D. S. D. (1831). Considérations statistiques, historiques sur la régence d'Alger, De Lannay lib. Paris.

20. Montagnon, P. (1986). La Conquête de l'Algérie, les germes de la discorde 1830–1871, éd. Pygmalion, Paris.

21. Raymond, A. (1985). Grandes villes arabes à l'époque ottomane, éd. Sindbad, Paris.

22. Rozet, M. et Carette, E. (1980). Algérie états tripolitains, éd. Bouslama, Tunis.

23. Shaw, T. (1980). Voyage dans la régence d'Alger, trad. de l'anglais par J. Mac Carthy, 2é. éd. Bouslama, Tunis.

24. Venture De Paradis, J.M. (1983). Tunis et Alger au XVIIIé. siècle, bib. Arabe, Sindbad, Paris.